

المقدمة :

إن الحمد لله حمدته ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم..

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

ثم أما بعد:

فلقد تكلم كثير من الصوفية في الولاية وإثباتها ، وما يرتبط بها من الكرامات والحوارق التي تنسب إلى الأولياء من الصوفية وأهل الصلاح ، ومن يتصفح كتب التصوف يرى الكثير من الأخبار الواردة عن كرامات الأولياء ، ومن خلال هذا التقرير سأقدم نبذة موجزة عن كرامات الأولياء لدى الصوفية مشتملة على : تعريفها ، وثبوتها ، وكيف تحصل الولاية ، وصفات الولي ، وأصناف الأولياء .

ونظراً لأهمية كتاب (ختم الأولياء) لأبي الحكيم الترمذي ، فقد أفردته بمبحث خاص .
سائلاً الله العون والسداد .

تعريف الولي :

قال القشيري : ¹ فإن قيل : فما معنى الولي ؟

قيل : يحتمل أمرين : أحدهما : أن يكون فعلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير وغيره ، فيكون معناه : من توالت طاعته من غير تخلل معصية .

ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح معنى مجروح وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان ، وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالى (وهو يتولى الصالحين) .

وقال الهجويري : ² أما الولاية بفتح الواو : فهي في حقيقة اللفظة بمعنى النصر ، والولاية بكسر الواو : فهي الإمارة .

والولاية أيضاً : الربوبية ، ومن ذلك أن الله تعالى قال (هنالك الولاية لله الحق) لأن الكفار يتولونه ويرجعون إليه ، ويتبرأون من معبوداتهم . والولاية أيضاً بمعنى : المحبة .

وعرفها السرهندي بقوله (فان الولاية عبارة عن قرب الهي جل سلطانه يكرم به أوليائه بعد نسيان السوي ³)

ثبوت الولاية :

الصوفية متفقون على ثبوت الولاية ويظهر ذلك فيما يلي :

قال القشيري : قال الأستاذ أبو القاسم : ظهور الكرامات على الأولياء جائز .

والدليل على جوازه : أنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده ، وإذا وجب كونه مقدوراً لله ، سبحانه ، فلا شئ يمنع جواز حصوله .⁴

وقال الهجويري : اعلم أن قاعدة وأساس طريقة التصوف والمعرفة جملة يقوم على الولاية وإثباتها ، لأن جميع المشايخ رضي الله عنهم متفقون في حكم إثباتها ، غير أن كلاً منهم بين هذا بعبارة مختلفة ، ومحمد بن علي رضي الله عنه مخصوص بإطلاق هذه العبارة على حقيقة الطريقة .⁵

¹ / الرسالة القشيرية - ج ٢ - ص ٦٦٤

² / كشف المحجوب - ص ٤٤٣

³ / <http://www.elsawofelislamy.com/Archive/332/article8-2.html>

⁴ / الرسالة القشيرية - ج ٢ - ص ٦٦٠

⁵ / كشف المحجوب - ص ٤٤٢

كف تحصل الولاية ؟

قال القشيري : والكرامة فعل لا محالة محدث ، لأن ماكان قديماً لم يكن له اختصاص بأحد ، وهو ناقض للعادة ، وتحصل في زمان التكليف وتظهر على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً . وقد تحصل باختياره ودعائه وقد لا تحصل له وقد تكون بغير اختياره في بعض الأوقات ، ولم يؤمر الولي بدعاء الخلق إلى نفسه ولو أظهر شيئاً من ذلك على من يكون أهلاً له لجاز .^٦

ويبين محمد العبد في كتابه^٧ طريق الوصول إلى الولاية عند الصوفية فيقول : إنه طريق معكوس لأن الغاية من مجاهداتهم هي معرفة الله أو الفناء ، والمفروض أن معرفة الله سبحانه هي خطوة أولى للإيمان وهذه المعرفة فطرية كما يحدثنا القرآن ، والعمل الصالح هو الذي يوصل إلى أن يحب الله عبده وأما فناؤهم فهو يوصلهم إلى كفر الإتحاد والحلول... إلى أن قال بينما طريق الصوفية طريق شكلي آلي ، لا بد أن يمر المرید بكذا وكذا ثم يصل إلى شطحات يظن فيها أنه شاهد الحق . وأفضل الأولياء عند أهل السنة الأنبياء والرسل بينما عند الصوفية النبي عن الفلاسفة المتأهين في البحث والحكمة كما يقول السهروردي المقتول على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، فالولي عند أهل السنة هو ذاك المسلم الإيجابي الذي يقوم بالطاعات والولي عند الصوفية هو المستغرق في الفناء .

صفات الولي :

جاء الهجويري فننقل العديد من كلام مشايخهم في بيان صفات الولي فمن ضمن مقال :

قال أبو علي الجوزجاني: الولي هو الفاني في حاله والباقي في مشاهدته الحق : لم يكن له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار .

وقال الجنيد: من صفة الولي أن لا يكون له خوف ، لأن الخوف ترقب مكروه يحل في المستقبل أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف والولي ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئاً وكما لا خوف له ، لارجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل أو مكروه يكشف .

ويقو أبو عثمان المغربي رحمه الله : الولي قد يكون مشهوراً ولا يكون مفتوناً ويقول آخر : الولي قد يكون مستوراً ولا يكون مشهوراً .

ماذا تكون هذه الكرامات؟

هذه الكرامات التي للأولياء قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء في زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة ، أو تخليصاً من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة ؟

^٦ / الرسالة القشيرية - ص ٦٦١
^٧ / الصوفية نشأتها وتطورها - ص ٧١

هل يكون الولي معصوماً ؟

قال القشيري : أما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصير على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات ، فلا يمتنع ذلك قي وصفهم .^٨

صفتهم وعددهم :

أما صفتهم وعددهم : فمنهم أربعة الآف وهم المكتومون ولا يعرف أحدهم الآخر ، ولا يعرفون أيضاً جمال حالهم وهم في كل الأحوال مستورون عن أنفسهم وعن الخلق . والأخبار واردة بهذا وناطقة به أقوال الأنبياء . أما أهل الحل والعقد وقادة حضرة الحق جل جلاله : فثلاثمائة يدعون (الأخيار) .

وأربعون آخرون يسمون (الأبدال) .

وسبعة آخرون يقل لهم (الأبرار) .

وأربعة يسمون (الأوتاد) .

وثلاثة آخرون يقال لهم (النقباء) .

وواحد يسمونه (القطب) و(الغوث) وهؤلاء جميعاً يعرفون أحدهم الآخر ويحتاجون في الأمور لأذن بعضهم البعض .

ومن الصفات التي ذكرت : ما ذكره القشيري عندما سئل : فما الغالب على الولي عند صحوه ؟

قال : صدقه في أداء حقوقه سبحانه ، ثم رفقته وشفقته على الخلق في جميع أحواله . ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخلق ، وابتدائه لطلب الإحسان من الله عز وجل إليهم من غير التماس منهم وتعليق الهمة بنجاة الخلق وترك الانتقام منهم والتوقي عن استشعار حقد عليهم مع قصر اليد عن أموالهم وترك الطمع بكل وجه فيهم وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم ولا يكون خصماً لأحد في الدنيا ولا في الآخرة .^٩

الفرق بين المعجزات والكرامات :

قال الهجويري : فاعلم أن سر المعجزات : الإظهار وسر الكرامات : الكتمان .

وثمرتة المعجزة تعود على الغير والكرامة خاصة بصاحبها .

وصاحب المعجزة أيضاً يقطع بأن هذه معجزة والولي لا يستطيع أن يقطع بأن هذه كرامة أو استدراج .

وصاحب المعجزة أيضاً يتصرف في الشرع ويقول ويفعل في ترتيب نفيه وإثباته أمر الله ولا وجه لصاحب الكرامة في هذا سوى التسليم وقول الأحكام .^{١٠}

وأضاف الكلاباذي فرقاً آخر فقال : إن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون والأنبياء تكون لهم المعجزات وهب بها عالمون ويأثباتها ناطقون لأن الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة والأنبياء لا يخشى

عليهم الفتنة به لأنهم معصومون .^{١١}

^٨ / الرسالة القشيرية - ص ٦٦٥

^٩ / الرسالة القشيرية - ص ٦٦٧

^{١٠} / كشف المحجوب - ص ٤٥٥

^{١١} / التعرف لمذهب أهل التصوف - ص ٤٦

هل يجوز أن يعرف الولي أنه ولي أم لا ؟

اختلفوا ، فقال بعضهم : لا يجوز ذلك لأن معرفة ذلك تزيد عنه خوف العاقبة وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن وفي وجوب الأمن زوال العبودية لأن العبد بين الخوف والرجاء قال الله تعالى (ويدعوننا رغباً ورهباً) . وقال الأجلة ومنهم الكبار : يجوز أن يعرف الولي ولايته لأنها كرامة من الله تعالى للعبد والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقتضي زيادة الشكر. ^{١٢}

ترجمة الحكيم الترمذي :

قال الذهبي : ١٣ هو الإمام العارف الزاهد أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي حدث عن : أبيه وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر وصالح بن عبد الله الترمذي وعتبة بن عبد الله المروزي ويحيى بن خثمة وسفيان بن وكيع وعباد بن يعقوب الرواحني وطبقتهم . وكان ذا رحمة ومعرفة وله مصنفات وفضائل حدث عنه : يحيى بن منصور القاضي والحسن بن علي وغيرهما من مشايخ نيسابور فإنه قدمها وحدث بها في سنة (٢٨٥) . وله حكم ومواعظ وجلالة لولا هفوة بدت من . من كلامه : ليس في الدنيا حمل أثقل من البر فمن برك فقد أوثقك ومن جفاك فقد أطلقك . ماذا قالوا عنه ؟

قال أبو عبد الرحمن السلمي : أخرجوا الحكيم من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر وذلك بسبب تصنيفه كتاب ختم الولاية وكتاب علل الشريعة ، وقالوا : إنه يقول إن للأولياء خاتما كالأنبياء لهم خاتم وإنه يفضل الولاية على النبوة وقال السلمي : هجر لتصنيفه كتاب ختم الولاية وعلل الشريعة وليس فيه ما يوجب ذلك ولكن لبعده فهمهم عنه قلت (أي الذهبي) - : كذا تكلم في السلمي من أجل تأليفه كتاب حقائق التفسير ، فياليت له لم يؤلفه ، فنعود بالله من الإشارات الحلاجية والشطحات البسطامية وتصوف الاتحادية فواحرزناه على غربة الإسلام والسنة قال الله تعالى : { وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } [الأنعام ١٥٣] انتهى كلام الذهبي رحمه الله .

أصناف الأولياء :

يقول الحكيم الترمذي : الأولياء عندنا على صنفين : صنف أولياء حق الله ، وصنف أولياء الله . وكلاهما يحسبان أنهما أولياء الله .

١ - فأما ولي حق الله : فرجل أفاق من سكرته فتباب إلى الله تعالى ، وعزم على الوفاء لله تعالى بتلك التوبة فنظر إلى ما يراد له في القيام بهذا الوفاء فإذا هي حراسة هذه الجوارح السبع : لسانه وسمعه وبصره ويده وبطنه وفرجه فصرفها من باله ، وجمع فكرته وهمته في هذه الحراسة ولها عن كل شيء سواها

^{١٢} / المصدر السابق - ص ٤٦
^{١٣} / سير أعلام النبلاء / الذهبي - ج ١٣ - ص ٤٣٩

حتى استقام . فهو رجل مؤدي الفرائض حافظ للحدود لا يشتغل بشئ غير ذلك . يحرس هذه الجوارح حتى لا ينقطع الوفاء لله تعالى بما عزم عليه ، فسكنت نفسه وهدأت جوارحه .^{١٤}

٢ - وأما ولي الله : فرجل ثبت في مرتبته وافيًا بالشروط كما وقي بالصدق في سيره وبالصبر في عمل الطاعة واضطراره ، فأدى الفرائض وحفظ الحدود ولزم المرتبة حتى قوّم وهذب ونقى وأدّب وطهر وطيب ووسّع وزكّى وشجّع وعوّذ . فتمت ولاية الله له بهذه الخصال العشر . فنقل من مرتبته إلى مالك الملك ، فرتب له بين يديه وصار يناجيه كفاحاً فاشتغل به عن سواه ولها به عن نفسه وعن كل شئ . فصيره في قبضته فأَيّ حصن أحصن من قبضته ؟ وأي حارس أشد حراسة من عقله ؟^{١٥}

سئل أبي الحكيم الترمذي : من الذي يستحق خاتم الأولياء كما استحق محمد خاتم النبوة ؟^{١٦}

قال : المستحق لذلك : رجل يشبه أباه وهو أعجمي هو نسق في خلقه وهو ربيعة من الرجال . ختم به دورة الملك وتختم به الولاية وله وزير اسمه يحيى روحاني اختد انسي المشهد .

ثم قال : الختم ختمان ، ختم يختم الله به الولاية العامة وختم يختم الله به الولاية المحمدية . فأما ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسى عليه السلام فهو الولي بالنبوة المطلقة .

كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة لا نبوة تشريع بعده .

وأما ختم الولاية المحمدية فهي لرجل من العرب من أكرمها أصلاً ويداً وهو في زماننا اليوم موجود . عرفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة ورأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه عن عباده وكشفها لي بمدينة فارس حتى رأيت خاتم الولاية منه وهو خاتم النبوة المطلقة لا يعلمها كثير من الناس، وكما أن الله ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم نبوة الشرائع كذلك ختم الله بالختم المحمدي الولاية التي تحصل من الورث المحمدي لا التي تحصل من سائر الأنبياء .

وأما ختم الولاية العامة الذي لا يوجد بعده ولي فهو عيسى عليه السلام ولقينا جماعة ممن هو على قلب عيسى عليه السلام وغيره من الرسل وقد جمعت بين صاحبي : عبد الله (بدر الحبشي) واسماعيل بن سود كين وبين هذا الختم (خاتم الولاية المحمدية) ودعا لهما وانتفعا به .

ثم سئل : وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك ؟

قال : بصفة الأمانة وبیده مفاتيح الأنفاس وحاله التجريد وهذا هو نعت عيسى عليه السلام .

وأما الصفة التي استحق بها خاتم الولاية المحمدية أن يكون خاتماً فبتمام مكارم الأخلاق مع الله . وإنما كان ذلك كذلك لأن الأغراض مختلفة ومكارم الأخلاق عند من يتخلق بها معه ، عبارة عن موافقة غرضه ، سواء حمد ذلك عند غيره أم ذم .

¹⁴ / ختم الأولياء - الترمذي - ص ١١٨

¹⁵ / المصدر السابق - ص ٣٣١

¹⁶ / المصدر السابق - ص ١٦١

وسئل : وكيف مراتب الأولياء يوم الزيارة ؟^{١٧}

الجواب : إن الناس إذا جمعهم الله يوم الزيارة في جنة عدن على كتيب المسك الأبيض نصب لهم منابر وأسرة وكراسي ومراتب .

فالأنبياء على رتبتين : أنبياء شرائع وأنبياء أتباع . فأنبياء الشرائع في الرتبة الثانية من الرسل والأنبياء الأتباع في الرتبة الثالثة . والرتبة الثالثة تنقسم قسمين : قسم يسمى أنبياء وقسم يسمى أولياء . والرتبة للأولياء بالإسم العام .

فإذا كان يوم الزيارة فكل نبي أخذ معرفة ربه من ربه إيماناً لم يشبها بنظر فكري . فإنه يشاهد ربه بعين إيمانه . والولي التابع له في إيمانه ربه يراه بمرآة نبيه . فإن كان هذا الولي حصل معرفة ربه بنظره واتخذ ذلك قرّة من حيث إيمانه ، فله يوم الزيارة رؤيتان : رؤية علم ورؤية إيمان .

فإن كان الولي من أولياء الفترات لم يحصل له في معرفته بربه من المعارف الإلهية التي جاءت بها الرسل وكانت معرفتهم برهم إما عن نظر وإما عن تجل إلهي لقلبه أو كلاهما فمثل هؤلاء يكونون بما هم أهل نظر في مرتبة أهل النظر في الرؤية وإن كانت معرفتهم عن كشف إلهي ، فإن هؤلاء صفاً على حدة يتميزون به عن سائر الخلق .

قول شيخ الإسلام في كتاب (ختم الولاية) :

قال : تكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب [ختم الولاية] بكلام مردود، مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة، حيث غلا في ذكر الولاية، وما ذكره من خاتم الأولياء، وعصمة الأولياء ونحو ذلك مما هو مقدمة لضلال ابن عربي، وأمثاله، الذين تكلموا في هذا الباب بالباطل والعدوان، منها قوله:

فيقال لهذا المسكين : صف لنا منازل الأولياء — إذا استفرغوا مجهود الصدق — كم عدد منازلهم ؟ وأين منازل أهل القرية ؟ وأين الذين جازوا العساكر ؟ بأي شيء جازوا ؟ وإلى أين منتهاهم ؟ وأين مقام أهل المجالس والحديث ؟ وكم عددهم ؟ وبأي شيء استوجبوا هذا على ربهم ؟ وما حديثهم ونجواهم ؟ وبأي شيء يفتتحون المناجاة ؟ وبأي شيء يختمونها ؟ وماذا يخافون ؟ وكيف يكون صفة سيرهم ؟ ومن ذا الذي يستحق خاتم الولاية كما استحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة ؟ وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك ؟ وما سبب وكم مجالس هذه الأبدان حتى ترد إلى مالك الملك ؟ إلى مسائل آخر كثيرة ذكرها من هذا النمط .

ومنها فيه: قال له قائل : فهل يجوز أن يكون في هذا الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟ قال : إن كنت تعني في العمل فلا، وإن كنت تعني في الدرجات فغير مدفوع، وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب، وتسمية ما في الدرجات بالأعمال فمن الذي حوّل رحمة الله عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ولا مجتبي، ولا مصطفى، أو ليس المهدي كائنًا في آخر الزمان؟ فهو في الفتنة يقوم بالعدل، فلا يعجز عنها. أو ليس كائنًا في آخر الزمان من له ختم الولاية؟ وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف؟ فكما أن محمدًا

صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء، فأعطى ختم النبوة وهو حجة الله على جميع الأنبياء، فكذلك هذا الولي آخر الأولياء في آخر الزمان.

وقال شيخ الإسلام^{١٨} في موضع آخر "وكذا خاتم الأولياء لفظ باطل لا أصل له. وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي. وقد انتحله طائفة كل منهم يدعي أنه خاتم الأولياء: كابن حموي، وابن عربي، وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي — صلى الله عليه وسلم — من بعض الوجوه، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا، فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر — رضي الله عنه — ثم عمر — رضي الله عنه — ثم عثمان — رضي الله عنه — ثم علي — رضي الله عنه — وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي — صلى الله عليه وسلم — ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخاتم الأولياء في الحقيقة آخر مؤمن نقى يكون في الناس، وليس ذلك بخير الأولياء، ولا أفضلهم، بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — ثم عمر اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما"

هذا ما تيسر إيرادَه حول موضوع الولاية عند الصوفية .